

حمّودة الشّريف

مَدينة النّحاس

حمّودة الشريف

مَدينةِ النحاسْ

الدار التونسيّة للنشر

وجدت نفسى ألبس لباسا أبيض ، أمشى
فى تؤدة واطمئنان ، أتأمل صفحة الطبيعة
المشكلة الألوان : ورود قد احمرت خجلا ،
وتضوعت رائحتها فى الأرجاء ، فاذا الحديقة
عطر وجداول تنساب هادئة ، تعطى الحياة
والنمو دون أن تطلب جزاء ، وأشجار تهدلت
أغصانها من ثقل الثمار ، وطيور فى نشوة
عارمة ، عندمــا أقترب منها تطـير زرافات
نغيب فى الأعالى ثم ما تلبث أن تعود لتجثم



فوق شجرة أخرى ، وفراشات منتشرة هنا وهناك تزيد فى زخرفة الطبيعة ، ونحل قد وجد لذة وحياة فى الأزهار ، وحمـام أبيض يسير فى الممرات أرمى له قطع الخبز فيتقدم منى ، ويقفز أمامى وفوق كتفى فرحا جذلان، فالطبيعـة فى أزهى حللهـا وكأنها زربيـة قيروانية محكمة الصنـع يقدمها لى الربيـع هدية لأتمتع بها ، تمنيت لـو أقضى العمر كله فى هذا الجو الرائق الجميـل ٠

لم تدم سعادتى الا لحظات خلتها حلما ، اذ تغيرت بسرعة مدهشة ، واذا تلك الطبيعة الساحرة الأخاذة تصبح غابة شوك واكفهر وجـه السمـاء ، واختـفـت الشمس وراء السحب الداكنـة وغاب الجمـال وأضحيت كـأننى فى ليلة من ليالى الشتـاء ، واشتد نزول الأمطار مصحوبا بالزوابع والصواعق الرعدية وشعرت بانقبـاض نفسى يعصر قلبى ، فاكتأبت وأظلمت الـدنيا فى عينى فبكيت ، ورفعت يـدى الى السماء ولكـن لا مجيب ، وطلبت ملجأ فلم أجده ، أمطار غزيرة من فوق ، وميـاه تتدفق من تحت كـأنهـا الأنهار فكيف لى أن أنام ٠٠٠ ؟ وكانت مـن حين لآخر تتعالى أصوات الحيوانات الوحشية يرددها صدى الغابة فتهتـز نفسى وحشة وفزعا ، وكـان عواء الذئـاب يقترب منى شيئا فشيئا ، وضاقت نفسى ، ولكن أيـن المفـر ؟ ، وسرعـان مـا تسلقت شجـرة ، ورأيت الذئـاب تجتمـع تحتهـا ٠ وطفقت تتشممها فازداد وجلى وقلت :

ـ ان اكتشفتنى فستكون آخر ليلـة فى حياتى ٠ بقيت الليل كله فوق الشجرة وأنا أرتعد من الخوف ، وفى الصباح كنت مثقلا بالأحزان ، تعبا ، مهموما ، مشوش الخاطـر

وقلت فى نفسى :

ـ اذا أنا بقيت على هذه الحال ، لا شك انى هالك • طفقت أمشى على غير هدى ، والأشواك كالابر فى قدمى ، والتعب ينهش جسمى ، وفجأة التقيت بقرد عجوز انزعجت من منظره وتشاءمت منه ، وقفت أنظر اليه أتأمل ملامحه والخواطر تمر سراعا فى بالى • وأخيرا قررت أن أغير اتجاهى ، ولكنه أشار الى اشارات ود وعطف وأقبل نحوى باشا ، ضاحكا ، وسرعان ما آنست به وانتعشت روحى بوجوده ، وكان يتمسح بى ويطلق أصواتا خافتة فهمت منها أنه يستفسرنى عن وجودى هنا وعمن رمانى فى هذه المجاهل ، ولكن كيف لى أن أصور له ما فى نفسى ••• واكتفيت بدمعات انسابت فوق خدى ، فاحتضننى وبدأ يطمئننى ويشاركنى أحزانى ، وأطلق صرخة اقشعر لها بدنى تردد صداها فى الغاب • وبعد هنيهة أقبلت مجموعة من القردة مسرعة وما ان اقتربت منا حتى طأطأت رؤوسها تؤدى التحية ، وأشار اشارات مختلفة فتقدم البعض فى سلك منتظم ومشى الآخرون خلفنا وكأنما هم فى استعراض ، وسرنا فى طرق ضيقة ملتوية ننزل تارة ونصعد أخرى ، نستقبل الشمس حينا ونوليها ظهرنا حينا آخر • طال بنا السير وأنهكت قواى ، واشتد تعبى • ولما رأى ملك القرود ما بى ، كلف قردين عبلاوين تناوبا حملى ، ودخلنا نفقا مظلما ، سرنا فيه ساعات مضنية وما ان تجاوزناه حتى كنا أمام كهف تحرسه قرود شداد ، كان مظلما ، كثير التعاريج ، ما ان تدخل حتى تستقبلك رائحة ندية ، وفى صدره قاعة فسيحة فيها



جلود علقت فى عيدان خشبية ومقاعد حجرية كأنها الكراسى .
توسط الملك القاعة ، واصطف الباقون أمامه وأشار اليهم فخرجوا ، أما أنا

فأحسست بدفء يسرى فى عروقى وراحه تداعب نفسى فغرقت فى نوم عميق ، ورأيت فــى المنــام آسدا قويــا يداهمنى فنهضت مذعورا ، وتقدم منى ملك القــرود ووضع يده على رأسى ثــم كلف بى قــردا فدهننى بمرهم أزال عنى التعب والارهــاق وقدم لى الجوز الهندى والتفاح والموز •

بقيت مدة عند القرود وأنا فــرح بتلــك الحياة ، نشوان ، ولكننى أحسست بدافــع للرحيل لأقصد غايتى ، فاستسمحت ملكهم فى السفر ، فلــم يسمح لى ، وكلف قردين بمراقبتى ، ومنذ ذلك الحين تغــيرت حياتى وشعرت بالضيق والقلق ، وذات ليلة جفا الكرى عينى فبقيت ساهرا مسهدا ، ورأيت نورا يدخل مــن ثقبة مــن ثقب باب الكهف فتقدمت ورأيت ويا لهول مــا رأيت ••• ! رأيتهم يوقدون النار ، ويتحلقون حول تمثال خشبى ، والملك يصلى بهم وهــم يتضرعون لالاههم ، ثم أتوا بانسان قــد اكتنز شحما وعلى عينيه عصابــة وأجلسوه عــلى ركبتيه وذبحوه قربانا لالاههم ، تثبت مــن الأمــر وداخل نفسى الهلع فبكيت وعرفت لماذا لــم يسمحوا لى بالذهاب •

منذ ذلك الحين ، قررت الهروب ، وطفقت أصمم خطة ، ولكن كيف لى أن أهرب ، وهم يراقبوننى مراقبه شديدة ••• ؟ فهم قــد غنموا غنما عظيما عندما وقعت بين أيديهم • كيف أستطيع الافــلات من أيديهم ، وهــم يعرفون مجاهل الغابة وطرقها ••• ؟ ضيقوا على الخناق ، وأضحوا لا يتركوننى أخرج من الكهف • كثير من التساؤلات دارت بفكرى وأنا أقلب الأمر على جميع وجوهه علنى أجد حيلة تمكننى من النجاة بنفسى •

ذات ليلة ، أقاموا حفلا ساهرا وطفقوا يرقصون ويشربون مشروبا غريبا قد استخرجوه من الحشائش وناولوني عدة أقداح وكنت أفرغها ورائي وأوهمهم اني أشرب . ضحكوا كثيرا ولعبوا كثيرا ، ورقصوا وتخدروا بذلك المشروب فناموا منهكين . تناومت أول الأمر ثم نهضت أمشي على أطراف الأصابع ، وتوالت دقات قلبي وكتمت أنفاسي ، وعندما أسمع حركة التصق بجانب الكهف وأختبيء في زاوية من زواياه خصوصا وقد أصبحت عارفا بجميع أركانه . عندما وصلت الباب ازدادت دقات قلبي وتوالى وجيبها وخيل الى أني أسمعها تحدث صوتا قويا وانهم لحقوا بي ، تمهلت قليلا ووضعت يدي وبقيت أراقب حركة الحراس ، انحنيت وتقدمت ببطء وخرجت أحبو حتى جانبت الكهف ثم انطلقت .

بقيت أياما وأنا أجرى ، وقد أصابنى الجهد والاعياء ، ولكن الخوف هو الذى كان يدفعنى الى الأمام غير مبال بما ألاقيه من المصاعب ، وذات يوم سمعت ضجيجا وصياحا يتعالى وسنابك خيل تدك الأرض ، فصعدت الى شجرة فاذا بى أرى القرود يركبون جيادا وبأيديهم السهام يحثون خيولهم ليدركونى ، واجتازونى حتى مهبط الوادى وبقوا يدورون فى نواحى الغابة ، يفتشون عنى ، أما أنا فلم أجد ما أفعله ، وأيقنت انهم سيمسكوننى ، كانوا يفتشون الغابة شجرة شجرة ويدخلون المغاور ويراقبون



حركة ماء الوادى على أكون مختبئا فيه · اقترب منى قرد وطفق ينظر الى الشجرة وكدت أرتمى عليه وقلت : أفتك منه سلاحه وأقتله وأحاربهم وبذلك يكون لى شرف الدفاع عن نفسى ، ولكنى سرعان ما عدلت عن هذه الفكرة · تأمل القرد الشجرة ثم ذهب وقلت فى نفسى : على أن أنزل فلعله رآنى وذهب ليخبر الآخرين · وفى المساء رأيتهم يوقدون النار ليشووا أرانب اصطادوها ، غافلتهم ، وارتميت فوق أسرع جواد واتجهت نحو ضفة النهر الأخرى ، فصاحوا صيحة واحدة وامتطوا جيادهم ولحقوا بى وهم يرشقوننى بالسهام ، ولكنى كنت قد ابتعدت عنهم وغبت فى الغاب ·

بقيت اسير مدة اسبوع ، وتعب الحصان المسكين ، واشتد هزاله واضحت صحته فى خطر ، ولم يعد يقدر على المشى ، وساءت حالته كثيرا وبرزت عظامه ، وسكب دموعا يشكو بها آلامه ، تألمت كثيرا وبكيت : فهو الذى أراحنى من التعب وآنسنى مدة ولولاه لوقعت فى قبضة القرود ، وحمحم المسكين خافتا ثم لفظ أنفاسه · ما أعظم مصابى ! ··· حفرت له حفرة عميقة وواريته ، وندبته ، ثم تحاملت على نفسى وواصلت سيرى ، كابدت المشاق وذقت ألوانا من العذاب ، ولكن تحقيق الهدف هو الذى كان يبعث فى نفسى بصيصا من نور الأمل فيخفف عنى المصاب ·

وجدت شيخا تحت شجرة يأتزر جلد أسد ، والوقار باد عليه ، حييته فرد

على التحية واشار على بالجلوس ·

قال : ما بك يا بنـــى ···؟

قلت : لى غاية اريد تحقيقها ·

قال : ما هـــى ··· ؟

قلت : زيارة مدينة النحاس ·

قال : أنا شيــخ طــاعــن فــى السن ولا أستطيــع أن أوصلك اليهــا ولكنى سأدلك على الطريق ·

قلت : أقريبة هى ··· ؟

قال : لا تخف سأعرفك مسالكها ·

قلت : شكرا لك يا سيدى على صنيعك ·

قال : أنــا مقعد فهل لــك أن تحملنى الى قصرى هناك ؟

قلت : لك ما تريد ·

قال : لن أنسى لك معروفك يا بنى ·

حملته على ظهرى ، ولم أسر كثيرا حتى كان المنزل أمامنا وسط الغابــة · أنزلتــه واذا

صورة ذلك الشيخ تتبدل الى صورة منكرة فعرفت انه الغول ، وقال لى :

ـ الآن وقعت فى قبضتى • •

ودفعنى الى حظيرة ملأى بالناس وكأنهم قطيع من الغنم يحرسهم حراس غلاظ شداد وبأيديهم حراب طويلة وسيوف حادة •

وفى الليل ، جاء الغول وبدأ يجس ، ووجد شخصا سمينا فأخذه وأطاح برأسه وشواه وأكله فاستعظمت الأمر وقلت :

ـ ما أتخلص من شر الا لأقع فى شر أعظم منه • وقدم الطعام للناس فأقبلوا عليه بشراهة • أما أنا ، فلم آكل • وطفقوا يطلقون صيحات كأنها خوار الثيران • انقطعت عن الأكل مدة حتى أضر بى الهزال وأخرجونى ووضعونى فى بيت منعزل ، وأصررت على عدم الأكل ، لأن كل من يأكل يفقد عقله ويصبح كالحيوان ، وتوعدنى الغول بالقتل ان أنا لم أمتثل لأوامره •

قلت فى نفسى :

ـ قيمة الشخص لا تظهر الا فى مقدرته على الخروج من المآزق ، أما أن يبقى مكتوف الأيدى أمام المشاكل فالحيوان أجل منه قدرا ومكانة •

كنت أتحين الفرص للهروب ، وفكرت فى عدة طرق أستطيع بها تخليص نفسى والنجاة بها ، وقلت :

ـ أنا لا أستطيع أن أجابه الغول بالقوة ، فهو أقوى منى وعلى أن أفكر فى حيلة يكون بها نجاحى ٠

وصنعت ما يشبـــه الحربة وجعلتهـــا حادة وتحينت فرصة نوم حارسى ، فأغمدتها فى صدره، فخر صريعا، وصاح صيحة مدوية، وقفزت الى شجرة كانت وراء سجنى وأقبل الحراس ومعهم الغول ، ورأيتهم يجرون فى جميــع النــواحى يفتشون عنى ٠ ولمـا لـم يجدونى ، قال لهم الغول :

ـ لــن يستطيــع الافلات مــن قبضتى ، سآتى به غــدا ٠

وعند ما تأكدت من رجوعهم تسللت مــن الشجرة وفــرائصى ترتعــد فلعــل الغــول متربص بى ، وقاسيت أيــامــا ذقت فيهــا الأهوال ، وكان اليــأس يداخلنى من حــين لآخر ، ولكنى أتشجــع وأتصبر وأقــول :

ـ لا قيمة للانسان اذا لم يحقق هدفــه ٠

بقيت أسير أياما تارة أنام فوق الأشجــار وأخرى أحتمى بالصخور ، ومشاعر الألــم تتنازعنى والهم يضغط على قلبى فأرفع يدى الى السمــاء مستنجـــدا ، وذات صبـــاح ، أشرفت على مدينة خيــل الى انهــا مــدينــة النحاس ، دخلتها وأنا أحس بمشاعر الفرح لأنى حققت أمنيتى ، وما ان تجاوزت الباب حتــى مــلكتنى الــدهشة وسيطـــر عــلى الاستغــراب ، فأهلهــا غريبو الأشكــال ، أنوف طويلة جدا معقفة ذات منخر واحــد ، وفى كل وجه عين جاحظة تدعو الى الاشمئزاز والتقزز ، والبطون منداحة بشكل غريب ،

وتجمع حولى خلق كثير يشيرون الى وكأنهم يستغربون خلقتى ، وحين أتقدم منهم لأسأل أحدهم يهربــون منى وقلت فــى نـفسى :

ـ ما أغرب الحياة ، أهؤلاء قوم صم ··· ؟

استندت الى السور ونمت وأنا مقر العزم على الرحيل عند الفجر ، وعنــد العشاء ، تقــدم منى شرطى وقال لى :

ـ حاكم البلاد يدعوك ·

فرحت وقلت :

ـ سيكافئنى على مغامراتى ·

دخلت القصر فــاذا كله حجارة كريمــة ، مفروش بالبلور المطعم بالمرجان ، وحيطانــه من الذهب والزمرد والماس ، وتقدمت مــن الملك فاذا هو ضخم الجثة كــالثور وسجدت أمامه وقلت :

ـ أمــر مــولاى ·

قــال :

ـ لــم قدمت الى هنــا ··· ؟

قلت :

ـ أنا أحب المغامرات وقــد سمعت بخبــر



مدينة النحاس فأردت استكشافها ٠

تطاير الشرر من عينيه وقال :

ـ أنت جاسوس ٠

قلت :

ـ أنا يا مولاى صبى شغـوف باكتشاف المجهول ٠

صاح :

احملوه وضعوه فى السجن ٠

أدخلونى بيتـا ضيقا وأوثقـوا قيـودى وكلفوا شيخا بحراستى ، قلت للشيخ :

ـ ألا ترحم طفولتى ٠٠٠ ؟ أليس لك أبناء صغار مثلى ٠٠٠ ؟

قـال :

ـ أنـا أبارك جـرأتك ، وكل من يهـوى المغامرات عليه أن يتحمل المتاعب ٠

طال بى السجن واستأنست بالشيخ وانعقدت ألفة بيننا وأصبح يعطف على وحدثنى عن كثير من تقاليد البلاد وعاداتها، وقلت له :

ـ لماذا خلقتكم هكذا ... ؟

قال :

ـ هذا سر ومن يذعه يكن جزاؤه الشنق وسط المدينة . حاولت أن أعرف ، ولكن الشيخ أصر على الكتمان .

قلت :

ـ ومتى سيخرجوننى من هذا السجن ... ؟

قال :

ـ فى يوم من أيام السنة لا يعرفه الا الملك وحاشيته .

قلت :

لم لا تحادثنى الا بالليل ... ؟

قال :

ـ تلك عادتنا ، النهار عمل وصمت والليل راحة وكلام .

اخرجونى من السجن ومثلت أمام الملك ، فقال لى :

ـ بما انك تحب المغامرات ، فقد اخترناك لتصعد الجبل وتبقى فيه يوما ، ثم ننزلك ٠

كنت مع عشرة رجال يركبون بغالا صفراء وعليها صناديق حديدية ، واتجهنا نحو الشمال ، كانت البغال تسير بسرعة عجيبة، ورغم ذلك فالرجال يحثونها على المزيد ٠ وعند الفجر ، كنا فى واد عميق فى سفح الجبل ، فكوا وثاقى ووضعونى فى جلد كبش وقالوا لى :

ـ سيأتى رخ يحملك الى قمة الجبل ، وعندما تشعر بالارتطام اصرخ ومزق الجلد واخرج وافعل ما نأمرك به ٠

امتثلت لأوامرهم وعندما وقعت فوق الجبل مزقت الجلد ونظرت فاذا كل ما حولى حجارة كريمة ، فرحت وقلت :

ـ قد حان وقت سعادتى ، ستكون لى ثروة عظيمة وسأشترى كل ما أحتاج اليه وأفتح أكبر دكان تجارى لوالدى الفقير المسكين ، وطافت برأسى كثير من المشاريع ، وصاحت بى الجماعة ، فأشرفت عليهم فرأيتهم كالأقزام وقالو لى :

ـ ارم لنا الحجارة ٠

كنت أرميهم بالحجارة الذهبية والجذل يغمر قلبى ، وعبأوا أحمالهم وتركونى وصرخت فيهم ، فلم يلتفتوا الى فعرفت خدعتهم وبان لى دجلهم ونفاقهم ٠

بقيت وحيدا على رأس الجبل وأنا حيران لا أدرى ما أفعل وسرت بين الأشجار كئيبا، حزينا ومن حين لآخر أجد هيكلا عظيما لانسان سبقنى وقام بنفس المغامرة ، وازدادت تخوفاتى ولعنت الذهب وقلت :

ـ الانسان عبد المال يقتل أخاه فى سبيل الحصول عليه · ما قيمة الذهب الآن عندى وأنا صائر الى الهلاك ؟ انه مثل الحجر العادى لا أنتفع منه ·

اهتزت نفسى وبكيت وأيقنت من الهلاك خصوصا وأنى أرى النسور تحوم فوق الجبل ، فكأنها تترقب موتى ، واشتدت ازمتى أياما وأصابنى النحول ، ورأيت أن التحسر والندم والبكاء لا تنفع شيئا وقيمة الشخص تظهر فى تغلبه على الصعوبات ، ونجاحه رهن عزيمته ·

انطلقت أفتش عن منفذ للخلاص وعاودنى اليأس ، ماذا سأفعل أ ألقى بنفسى من أعلى الجبل فتدق عنقى ···؟ أ أستسلم وبذلك أموت موت الضعفاء ··· ؟ رباه كيف الخلاص ···؟ وشعرت برغبة ملحة فى الانتحار ولكنى قلت :

ـ ان انتحرت فسأعبر عن ضعفى أمام مجابهة المشاكل ·

وأخيرا اهتديت الى فكرة : وهى أن أصنع حبلا من الحلفاء ، وطفقت أشتغل ، ووضعت فى طرفه حجرا وأدليته ، وكل يوم أريد قطعة حتى رأيته يلامس الأرض ، فصنعت جزمة وضعت فيها نفسى ولففتها جيدا وأوثقتها بالحبل وشددته الى شجرة قوية ، وطفقت أنزل حتى وصلت الأرض بسلام ·

فرحت بالنجاة ، وشعرت كأنى ولدت من جديد ودخلت غابة أشجارها باسقة وملتفة فتهت فيها وسمعت هاتفا يقول :

ـ يا قاصدا مدينة النحاس ، منالك صعب ، محفوف بالمكاره ، تجاوبت أصداء الغابة ، وتوقفت عن المسير والتفت على أعرف مصدر الصوت ثم انقطع عنى فواصلت سيرى ، لكنه ما لبث أن هتف ثانية :

ـ سوف لن تصل الى هدفك ، ارجع الى بلدك ، ستحترق قبل الوصول ، أنت مغرور تعرض نفسك للهلاك ، حذار ... حذار . توقفت عن المسير ولكننى قلت :

ـ على أن أقرر مصيرى وأن أنبذ هذه الأوهام الخرافية فأنا صاحب العزيمة الفولاذية ولن يستطيع أحد الحد من ارادتى .

وذات يوم رأيت شبحا يغطى وجه الشمس ، واذا به يهوى على ويلتقطنى ويرفعنى الى السماء ، ويقول لى بصوت مجلجل كأنه الرعد :

ـ من أتى بك الى هنا ...؟

ارتجفت أعضائى واصطكت أسنانى من شدة الخوف ونظرت اليه فاذا هو عملاق أعور العين ، أدرد الفم ، مشوه الخلقة مجدوع الأنف ، بقيت مشدوها لم أستطع الاجابة ، وضغط على حتى شعرت أن أنفاسى تختنق ، وأصابنى دوار ، فرأيت النجوم تتراقص أمام عينى وغبت عن الوجود .

استفقت على يد ناعمة تلامس وجهى ، وفتحت عينى فرأيت شيخا مهيبا ، ذا لحية

بيضاء متهدلة ، وعصابة تلف رأسه ، قال :
ـ ما بك يا بنـــى ٠٠٠؟
أشرت اليــه أن ناولنــى المــاء فانــى لا أستطيع الكلام فقدم لــى قدحا من اللبن ،
تماسكت و نهضت فقال لى :
ـ ـ ما سبب وجودك هنا ٠٠٠؟

قلت :

ـ أنا صبى يحب المغامرات

قال :

ـ هــذه أرض الجــن وحرام علــى الانس دخولها ٠

تنهدت تنهيدة كانت تعبــيرا عن عصارة آلامـــى ٠

قال :
ـ لولا جرأتك وعزيمتك أيها الصبى لمثلت بك ٠ قصصت عليه ما وقع لى فنكس رأسه وطفــق ينكت الارض بعصا كانت بيــده ، وبقــى يفكر برهة ، ثــم رفع رأسه وصفــر
فأتت عنزة جرباء وقالت :
ـ أمرك مطاع يا سيدى ٠

قال :

ـ لا أرجو منك الا قولة حق ·

قالت :

ـ أنا لا أعرف الا الحق لأنه صفـة حميدة ·

قال :

ـ انظرى الى هذا الصبـى ·

نظرت الى مليا ثم قالت :

ـ مغامر لا يحب الا المخاطر ·

قال :

ـ بماذا تأمرينـه ؟ ·

قالت :

ـ عليه أن يتشجع أكثر وأن يكون ذا عزيمة قوية لا تحطمها الأهوال، ولا تثنيها العقبات

ثم صفر فأقبل كبش أعور وقال :

ـ الامر أمرك يا مولاى :

قال الشيخ الجنـى :

ـ مـا هى أول كلمـة خلقـت فى هـذا الوجود ٠٠٠؟
قـالت :
ـ كلمـة الحق
قال الشيخ الجنـى :
ـ كيف ترى مصير هذا الصبـى ٠٠٠؟
قالت :
ـ ألا يبالى بالصعوبات فالخنوع هو الذى يرضى بالدون والهوان وتبا لكل كسول ٠
ثم صفر فأقبلت حية تسعى فقالت :
ـ لك العز يا مولاى ٠
قال :
ـ من أحسن الناس فى نظرك ٠٠٠؟
قالت :
ـ الجاد النشيط الـذى يقتحم المخـاطر ، وسلاحه الايمان والعزيمة ، والثقة بالنفس
قال :
ما مآل هذا الصبى ٠٠٠؟

قالت :

ـ الحياة كالجبل الشاهق الذى امتنع على الناس بلوغ قمته فـلا يصعده الا المغامـر الذى يسخر من الأتعاب ·

وصفر الشيخ الجنـــى فأقبلت الوحوش من كل صوب ووقفت فى صفوف متراصـــة وكأنها جيش نظامى فخاطبها :

ـ أيتها الوحوش ، بـــاسم الملك سليمـــان قولى كلمة حق فى شأن هذا الصبـــى ···

فصاحت بأصـــوات مختلفة ، فنظـــر الى الشيخ وقال :

ـ كلها أجمعت على أن الحياة للعامل صاحب العزيمة ، فسر يا بنى ·

ولا تخف فالنصر يتقدمك ، وقال لى :

ـ أين وجهتـــك ···؟

قلـــت :

ـ مدينة النحـــاس

قال :

ـ لم يبق بينك وبينها الا مسافة أسبوع ·

تهلل وجهى بشرا ، وأقبلت علـــى الشيخ أقبله ، فقال لى :

ـ المجد لك يا بنى ، وبوركت أعمالك •

تزودت منه بنصائح ، وأهدانى حصانا وأوصى الحيوانات بى خيرا ودلنى على طريق مدينة النحاس وشجعنى وقال لى :

ـ لا تخف فان الخوف يمنعك من تحقيق غاياتك •

وسرت أسبوعا • وذات ضحى ، رأيت أسوارا عالية تشع كأنها الشمس فاهتز قلبى وشعرت بنشوة الانتصار وصحت عاليا :

ـ الآن حققت هدفى ، الموت لا يهمنى ، الانسان عزيمة وصبر •

اقتربت من الأسوار وأنا أكاد أطير فرحا ولمستها فاذا النحاس حقيقة • وطفقت أسير أفتش عن الباب ومشاعرى فى اضطراب قوى ، وبقيت عشرة أيام ولم أصل الى الباب • وداخلنى اليأس لأننى وجدت نفسى أدور فى حلقة مفرغة ، وذات يوم ، سمعت صوتا جميلا تردده امرأة وهى تقول:

ـ أنت طفل مغرور تبحث عن المستحيل ، اترك مغامراتك وتعالى الى وستعيش حياة سعيدة ، هيا الى قبل أن ينفد زادك ، فتموت جوعا وعطشا •

وتذكرت وصية الشيخ ، فلم التفت اليها لانى عرفت انها تريد أن تثنينى عن عزمى• وواصلت سيرى والصوت يلاحقنى ثم ما لبث ان انقطع عنى ، احترت فى الدخول الى المدينة وقلت :

ـ أهـذه مدينة أمـوات ٠٠٠ ؟ ألا يخرج أهلها ٠٠ ؟ أما يدخلها أحد ٠٠ ؟ عجيب أمر هذه المدينة ٠

انتـابتنى خـواطر مـزعجـة وتملكتنى الهواجس وتأكد لدى أن الدخول الى المدينة مستحيـل الا أن يصبـح الانسان طائـرا ، وبينما أنـا فى حـيرتى تلك اذا بى أسمـع صوتا مزعجا يقول :

ـ أزعجتنا أيها الانسان فمـن أنت ٠٠ ؟ وماذا تريد ٠٠ ؟ ولماذا أتيت الى هنا ٠٠ ؟

كان الصوت يأتينى من كـل ناحية ، فلم أتثبت منـه ولـم أتبـين مصدره ، وارتجت الأرض وانشق الحائط النحاسى عن ثعبان أشيب الـرأس ، جاحظ العينـين ، نحيفـا وانتصب أمامى قائـلا :

ـ ماذا تريـد ٠٠ ؟

ارتجفت ولكنى تماسكت وقلت :

ـ أنـا ٠٠ أنـا ٠٠ أنـا ..

قـال :

ـ مـن أنت ٠٠ ؟

قلت :

ـ أنـا صبى يحب المغامـرات ٠

قـال :

ـ نحن لا نقبل الأجانب ٠

قلت :

ـ أنـا قرأت عن مدينـة النحاس كثـيرا وأريد أن أزورها ٠

قـال :

ـ الدخول مستحيل ٠

قلت :

ـ أنا تشوقت كثيرا الى المدينـة وتحملت المتاعب ، وعندما وصلت الى هـدفى أصبت بخيبـة ٠

ـ كـم من شخص مثلك تعب ولكنه لـم يصل الى هدفه ٠

قلت :

ـ أنـا لن أبرح هـذا المكان حتى أدخـل المدينة ٠

نظر الى الثعبان وقال :

ـ لن تدخلها أبدا ٠

وانشق الحائط النحاسى ، ودخل الثعبان.

وعندما أردت اللحاق به ، انضم الحائط الى بعضه ، وبقيت وحيدا أبكى حظى المنكود ، وأتألم من الشقاء الذى يتابعنى فى كل مكان . وعندما جن الليل ، تذكرت وصية الشيخ ، فرددت :

ـ باسم الحق الذى يرتكز عليه الوجود ، وباسم عدالة السماء ، يا أهل المدينة لم آت لأنغص عليكم العيش ، وانما أنا صديق يريد لكم الخير ، فليفتح الباب . وحينما أتممت كلامى ، انفتح الباب وخرج الثعبان وقال لى :

ـ تفضل يا بنى .

دخلت فاذا الحركة معطلة فى المدينة ، والناس منتشرون فى الشوارع والساحات وهم أشباه موتى ، لا يتحركون وتخرج من حناجرهم أصوات ضعيفة كأنما يحتضرون، وقادنى الى قلب المدينة حيث الساحة الكبرى ، فاذا فيها شجرة عجوز ، أوراقها صفراء . وتحلق حولها الناس ، والملك يتوسطهم ، وقد عقد اليأس ألسنتهم ينظرون الى بعيون حيرى ، أردت التقدم منهم ولكن الثعبان أشار الى أن اثبت مكانك ، لزمت الحذر وقلت له :

ـ ما شأنهم حول الشجرة ... ؟

قال :

ـ انهم يبكون صباح مساء ليسقوا الشجرة بدموعهم لأن حياتهم فى حياة تلك

الشجرة ٠

قلت :

ـ أتستطيع أن تقص علي خبر هذه المدينة ٠٠٠ ؟

قال :

ـ خبر هذه المدينة محزن يا بنى ، فقد كانت قرية صغيرة لا قيمة لها ، وعند ما نزلها « بختر » وسكنها ، عزم على تشييدها واعلاء شأنها ، وأراد أن يباهى بها المدن الأخرى وخطب فى رعيته فاستجابوا لندائه ، ونفذوا رغبته وجمعوا النحاس من أنحاء العالم ولاقوا الأهوال ولم يثنهم عن عزمهم خطر ، وقد مات الكثير منهم ، وعقيدتهم هى التى كانت تدفعهم فشيدوا مدينتهم المقدسة ، غير مبالين بالمخاطر والأتعاب والشدائد وبذلوا أرواحهم فداها وصنعوا أسوارا يحتمون بها من هجمات الأعداء فظهرت فى بهرج ليس له نظير ونالت بذلك لقب « أعجوبة الدهر » وأقبل عليها السواح يستجلون محاسنها فسحرتهم مفاتنها ، وخلبت ألبابهم زينتها فكانت مضرب الأمثال ، ونصبوا « بختر » ملكا عليها ، ودامت الأفراح سنة كاملة ، وساس بلاده بالعدل والانصاف والاستقامة فأحبته الرعية ، ودعت له بالبقاء وطول العمر ٠ وأنجب سبعة أبناء ، فكانت فرحة البلاد أكثر ٠ ورباهم أبوهم تربية حسنة فعلا شأنهم وساروا سيرة مثالية فالتفت حولهم الرعية وازداد تعاونهم وتعاضدهم على حب

الخير والعدل ونبذ الظلم والاعتصام بحبل الاتحاد والتناصح ، فكانوا أمة قوية شديدة البأس على أعدائها ، وازدهرت البلاد فى الصناعة والتجارة والثقافة فأضحت فى بحبوحة العيش ، ورغد النعيم ٠

ولم تدم هذه الحياة اذ تغيرت سيرة الناس فأقبلوا على الملاهى والفجور وتركوا العمل وعبثوا بالأموال وأقبل الملك على عمل تشمئز منه النفوس ، اذ قتل أبناءه وتزوج زوجاتهم فكانت لعنة الاله ، فأضعف عزائمهم ، وقتل روح العمل فيهم وشتت شملهم وأكثر التباغض والتناحر بينهم ، فأصبحوا يرضون بالمهانة والذل ، ولم يقدروا على مقاومة الأعداء ، فقد استولت ضفدعة على عين الماء التى كانوا يستسقون منها ، فكادوا يموتون عطشا ، وخرجوا لقتالها ، فلم يستطيعوا الوصول اليها وخارت قواهم وناموا فى طريق الكفاح ولم يتجاوزوا سفح الجبل ، فحملتهم فردا فردا ، وأدخلتهم المدينة وغلقت عليهم الأبواب ، وبقيت أحرسها فزحفوا نحو الساحة ، وبدأوا يسقون الشجرة بدموعهم لأنها حياتهم ٠

أنصت الى القصة وكلى اهتمام بما جرى وقلت للثعبان الشيخ :

ـ أنا أتطوع لقتالها ٠

قال :

ـ انها داهية ، صعب أن تنتصر عليها ٠

قلت :

ـ أنـا لهـا .

قـال :

ـ كـم من متطوع قبلـك قتلته بحيلهـا ومكـرهـا .

قلت :

ـ أنا وهبت حياتى لانقاذ المدينة .

قـال :

ـ ان أنت قررت وعزمت فتدرب على حسن الرماية .

قلت :

ـ فكـرة حسنـة .

قـال :

ـ بوركت أيها الصبى الشجاع .

بقيت سبعة أيام وأنا أمارس الرماية ، ثم أقبلت على الشيخ الثعبان وقلت له :

ـ الآن أخرج اليها .

قـال :

ـ صبـرا يـا بنـى ، فـالشباب حمـاس واندفاع ، ولكن تنقصه التجربة •
قلت :

ـ لقد تطوعت فاما الحياة واما الموت ولن أتأخر عن التضحية •

قـال :

ـ حذار يا بنى ، كن يقظا انهـا ضفدعـة لعوب ، فقد احتالت عـلى غـيرك وهم كثـر فوقعوا فى حبائلهـا وقتلتهم ، فكـر مليـا واعرف ما أنت مقدم عليه •

ركبت حصانـى وتمنطقـت بحـزام مـن السهام ، وخرجت من المدينة فنادتنى :
ـ انك لا تزال صغيرا يـا بنى ، لا تغتـر بكلام ذلك الثعبان ، فانه يريد أن يوقع بك، اعتبر بأهل المدينة ، فانهـم لما عصوا أمرى أذقتهم مر العـذاب •

صحت فيهـا :

ـ الحـرب لا مفـر منهـا •

قالت :

ـ ستندم يا بنى •

قلت :

ـ لا كـلام الا للسهـام أيتهـا العجـوز الخبيثـة •

رميتها بالسهم الأول فاستشاطت غيظا ، وشرعت ترمينى بحمم نارية .

وتوالى التراشق بيننا مدة ثلاثة أيام . وعند مغيب الشمس ، أطلقت سهما مسموما أصاب منها المقتل ، فصاحت صياحا مزعجا ارتجت له جميع النواحي ، ورأيتها تتدحرج نحو السفح مضرجة بالدماء ، وتهاوت صخور من الجبل ، وتدفق الماء فانتعشت عروق تلك الشجرة واخضرت ، واستفاق أهل المدينة ورجع الثعبان الى صورته الانسية ، وأقبل أهل المدينة يشبعوننى قبلات ويحتضنوننى ويبكون من شدة الفرح وقالوا :

ــ كن ملكا علينا .

قلت :

ــ اعتبروا بالماضى وكفروا عن سيئاتكم وجددوا حياتكم واخلصوا لأنفسكم وأنا قد



تطوعت بارادتى ولم يجبرنى أحد ، فأنـا لا أريد جزاء ولا شكورا ، ومن يفعل الخـير لا يخب مسعـاه ٠

وأحسست بشفاه رقيقة ناعمة تـلامس خدى ويد لطيفـة تداعب شعـرى وسمعت صوتا دافئا ينادى :

ـ انهض يا ٠٠٠ هشام انهـا السابعـة والنصف ، انهض يا بنى فقد تأخـرت عـن المعتاد ، لقد حان وقت المدرسة ٠٠٠ ما بك يـا بنى ٠٠٠ ؟

فتحت عينى فاذا أمى تدعونى ، واذا كـل الذى رأيته حلم ٠

سحب من هذا الكتاب 6000 نسخة نتقة للطبعة الأولى

الدار التونسية للنش

الثمن: 0،450 د. ت.